ومنها استعمالهم المشبوه للارتياب فيه ولم يرد في معجمات اللغة الا شبّه عليه الامر تشبيهاً اذا لُبّس عليه تلبيساً

ومنها ادخالهم اللام في جواب اذا كقولهم اذا اردنا ترتيب اقوالنا لما كان بضعة مجلدات واستعمال هذه اللام مع اذا اختراع عصري لم يسبق اليه

ومنها خطأهم في استعمال حروف الجر كما في قولهم لو ذكرنا كذا لاتسع بنا المجال والصواب لاتسع علينا المجال او لاتسع به المجال

ومنها قولهم اذنوه ان يمنع والصواب اذنوا له فقد جاء في كتب اللغة اذن له في الشيء اذناً اباحه له

ومنها قولهم هذا رجل بكل معنى الكلمة وهو تعبير اعجمي والتعبير العربي هذا رجل كل رجل لانه اذا اريد الدلالة على ان الشيء بلغ الغاية فيما تصفه به نعته بكل مضافة الى اسم ظاهر يماثله لفظاً ومعنى فتقول هو العالم كل العالم او تقول فلان عالم جد عالم اي متناهٍ في العلم وما هذا الاسلوب الافرنجي فيظهر فساده في الالفاظ المشتركة كالجمال والعجوز وما اشبه

ومن ذلك قولهم مُضام والصواب مضيم لانه اسم مفعول من ضامه يضيمه اذا ظلمه وقهره

ومنها قولهم استفتم الفرصة والمنقول في كتب اللغة اغتنم

ومن التراكيب المعتلة قولهم جعلهم ان يفعلوا ذلك والصواب جعلهم يفعلون ذلك

سعيد الخوري الشرتوني

سورية

في اواخر القرن السابع عشر

وقعت لنا رحلة لرجل انكليزي اسمه هنري مُندرل (Henry Maundrell, M.A.) جاء القدس من مدينة حلب في اوائل سنة ١٦٩٦ ليحضر عيد الفصح ووصف ما لقيه في طريقه من المشاق وحال السكان ومعايشهم حينئذٍ فاقتطفنا منها ما يأتي

قال كان في حلب اربعة عشر نفساً من ابناء جلدتي عزموا على زيارة القدس في عيد الفصح المقبل فرافقتهم وقمنا من حلب في السادس والعشرين من فبراير سنة ١٦٩٦ عند العصر وسرنا الى خان العسل لكي نرى هل نحن على تمام الاهبة لهذا السفر. وخان العسل غربي حلب على ساعة ونصف ساعة منها. والمسافر في هذه البلاد يضطر اما ان يبيت في خيمته او في خان او على قارعة الطريق. وطول ساعة سريعة طولها ثلاثون يرداً او اربعون

حولها غرف فارغة ينزلها المسافرون ولا يدفعون الاَّ اجرة زهيدة جدًّا ولا بدَّ من ان يكون معهم طعامهم وشرابهم وسائر لوازمهم لان ليس في الخان شيء من ذلك

ثم عدَّوا الاماكن التي مروا بها في اليوم التالي الى ان وصلوا الى سهول كفتين وهي اراض خصيبة كثيرة الضياع تربتها حمراء خالية من الحجارة الى غربيها اكام صخرية قاحلة كأن الطبيعة انتزعت الصخور من تلك السهول والقتها على تلك الآكام . وكفتين نفسها قرية كبيرة يعتني اهلها بتربية الحمام . وابراج الحمام كثيرة عندهم وهم يعيشون بالتقاط الذرة من السهول فلا يطعمونه شيئًا آخر . والارض بعد كفتين كثيرة الكرم والزيتون وبعدها وادٍ خصيب تحيط به الصخور الشاهقة على جانبيه ساروا فيه اربع ساعات فوصلوا الى بحيرة كبيرة وهي ضحاضح خاضوها بخيلهم وهم ذاهبون لكنهم وجدوها جافة وهم راجعون . وبعد ان ساروا ساعة من الزمن وصلوا الى اول خفر في الطريق حيث دفعوا رسوم الخفر . وقال ان الخفر وضع اولاً لاصلاح السبل فصار الآن واسطة لسلب الناس ولاسيما الافرنج

وفي اليوم الثالث وصلوا نهر العاصي ومروا على جسر (كبري) فيه ١٣ قنطرة والنهر هناك سريع الجري وعليه دواليب يديرها بجريه فترفع الماء . والماء عكر وسمكه رديء اكلوا منه فآذاهم كلهم وباتوا في خان كبير رحب فيه مضيفة لابناء السبيل يأكل فيها من يشاء منهم خبزاً وسمكاً مجاناً من وقف موقوف على هذا الخان . والى جانبه تكية للفقراء يقيمون فيها ما شاؤوا . قال ولما دخلنا هذا الخان رجدناه ملوءًا بالحجاج القاهبين الى البيت الحرام لكنهم احتوشونا على الرحب والسعة مع علمهم اننا لسنا منهم ولا وجهتنا مثل وجهتهم

وفي الثالث من شهر مارس هطلت عليهم امطار غزيرة افقدتهم رشدهم وبيناهم في حيرة شديدة لا يعلمون ما يعملون رأوا قرية ومزاراً اومدفن شيخ فاسرعوا اليه لعلهم يجدوا فيه ملجأ يقيهم المطر فاذا الذين في ذلك المزار قد لامهم لئلاَّ يخسوهم لانهم من غلاة الشيعة وكان معهم رجل من الاتراك فقال لاولئك الغلاة ان جماعته يسبُّون ابا بكر وعُمَر فسمحوا لهم بادخال امتعتهم الى المزار ثم سمحوا بدخولهم فقضوا الليل فيه والمطر لم ينقطع

وفي السابع من مارس وصلوا الى طرطوس فوجدوا فيها قلعة كبيرة وكانت لا تزال مسكونة ولها سوران من جهة البر بينهما خندق عميق وكانت المدينة تحيط بالقلعة من الجنوب والشرق ولها سور منيع وخندق يحيطان بها ولم يبقَ شيء من مبانيها غير الكنيسة وهي كبيرة طولها ١٣٠ قدماً وعرضها ٩٣ قدماً وارتفاعها واحد وستون قدماً وجدرانها وعمدها من حجر يشبه الرخام وكانت حينئذٍ مزريًا للوائي

ومروا امام جزيرة ارواد وشاهدوا كثيراً من الآثار القديمة منها حاجز من الحجر طوله نحو ٧٠٠ قدم وعرضه من اعلاه نحو تسعين قدماً وبعده ساحة مربعة طولها ٥٥ قدماً وعرضها كذلك منقورة في الحجر والصخر يحيط بها من ثلاث جهات وفي وسطها صخر مربع ارتفاعه تسع اقدام وطوله ١٦ قدماً وعليه قبة ارتفاعها نحو عشرين قدماً

ووصلوا مساء التاسع من مارس الى طرابلس ووجدوا فيها قنصل انكلترا واسمه فرنسيس هستنجس وتاجراً انكليزياً اسمه جون فشر وهو التاجر الانكليزي الوحيد في طرابلس فدعاهم المستر فشر في اليوم التالي الى وليمة اولها لهم على نهر ابي علي فوق طرابلس ورأوا هناك القناطر التي تسمى قناطر البرنس وهي لجر الماء الى طرابلس . وفي الحادي عشر من مارس مشوا امام الوالي ارسلان باشا بعد ان بعثوا اليه بالهدية على جاري العادة وفي الثاني عشر زاروا دير البلد وكان فيه اربعون راهباً من اليونان فاحسنوا ضيافتهم . وفي الثالث عشر زاروا الوالي ثانية وكان قد ضرب لهم موعداً للملك . ووصف الكاتب كيفية استقبال الوالي لهم وقال انه يقدم الى الزوار حلوى وشربات وآخر الكل طيب يطيبون به لحاهم وهو دليل على ان الزيارة انقضت وعليهم ان ينصرفوا

وفي الخامس عشر من مارس عزموا على مغادرة طرابلس ومواصلة السير فرأوا ان المكارين هربوا خوفاً من السخرة فاضطروا ان يفتشوا عن غيرهم ولم يخرجوا من طرابلس الا عصر ذلك النهار فوصلوا الى القلون وهي قرية صغيرة تحت البلمند ودارروا حول رأس شاذق في اليوم التالي الى ان وصلوا الى البترون وكانت خراباً وساروا منها الى جبيل فرأوا فيها قلعة كبيرة فيها كنيسة مثل كنيسة طرطوس تماماً وعبروا نهر ابرهيم على جسر من قنطرة واحدة غاية في العلو والاتساع

وامطرت السماء مطراً غزيراً وهم هناك فرأوا ماء النهر احمر عكراً كالدم ومن ثم اعتقد الاقدمون انه يتمكر بدم تموز (ادونس) عشيق الزهرة الذي قتله خنزير بري في جبال لبنان . ومروا بجونية وعبروا نهر الكلب على جسر من بناء فخر الدين المعني وادركتهم زوبعة شديدة وهم هناك فمنعتهم من نقل الكتابات القديمة التي شاهدوها على صخور نهر الكلب ووصلوا الى نهر بيروت وقطعوه على جسر فيه ست قناطر ورأوا كنيسة مار جرجس وكانت قد جعلت جامعاً (١) ووصلوا بيروت مبللين بالمطر ونزلوا

(١) بقيت كنيسة الى سنة ١٦٦١ في زمن علي باشا الدنمردار . قال الامير حيدر في تاريخه (وفي هذه السنة اجرى علي باشا الدفتردار انظار على كنيسة القديس جرجس التي في خارج بيروت جهة الشمال نحو النهر واذ لم يقبل النصارى البتة امر ان تصير الكنيسة جامعاً وبنى لها مأذنة وسميت مقام الخضر)

في خان قرب البحر

ووصف الكاتب بيروت فقال انها لقبت بوليا السعيدة في عهد اغسطس قيصر ولكن لم يبقَ فيها شيءٌ من سعادتها غير موقعها فانها قائمة على شاطئ البحر في بقعة طيبة . والبلاد حولها كثيرة الخصب وماؤها زلال يأتيها من التلال المجاورة لها وله فيها عيون جميلة البناء ولا شيءٌ غير ذلك يحق لها ان تفتخر به الآن

وفي بيروت قصر الامير فخر الدين امير لبنان وهو من الدروز الذين يظن انهم من بقايا الصليبيين . ولم يشأ هذا الامير ان تكون ولايته مقصورة على لبنان فاضاف اليه كل بلاد الساحل الى عكاء فاوجس الباب العالي منه شرًّا وردّه الى جباله

ذهبنا لمشاهدة هذا القصر وهو الى الشمال الشرقي من المدينة فوجدنا امام بابه نسقية ونوقرة من الرخام لم نرَ اجمل منها في بلاد الترك . والقصر دور مختلفة امسى اكثرها خرابًا ولعلها لم تكمل اصلاً وهناك اصطبلات للخيل وبيوت للاسود ونحوها من الوحوش مما لا مثيل له الاّ في قصور الملوك . واجمل ما رأينا هناك بستان كبير مربع مقسوم الى ست عشرة حديقة من شجر البرتقال . والاشجار كلها كبيرة ناضرة لم نرَ العين اجمل منها تكاد اغصانها تنكسر من كثرة حملها . وحول هذه الحدائق حائط من الحجر فيها مجارٍ للمياه يروى بها البستان كلهُ ولو كان فيه بستاني انكليزي ما نظمهُ باحسن من تنظيمه لكن واسفاه فاننا لما رأيناهُ كان قد صار حظيرة للغنم والمعزى وزبلها فيه يعلو عن الارض اكثر من ذراع . وفي الجانب الشرقي من هذا البستان عمشيان عاليان الواحد فوق الآخر يوصل الى كل منهما باثنتي عشرة درجة وفوقهما اشجار البرتقال تظللهما وهما يوصلان الى مصيف بديع في الجهة الشمالية كان فخر الدين يجلس فيه في ساعات النهو فانهُ اراد ان يقلد ملوك ايطاليا الذين زار بلادهم وقد رأينا في بستان آخر نُصبًا للتماثيل وفي احدى زواياهُ برج عالٍ ارتفاعهُ ٦٠ قدمًا بناهُ مرقبًا واحكم بنيانه فان سمك جدرانه ٢٠ قدمًا (١)

(١) يظهر لنا ان هذا البرج هو برج الكشاف عينه الذي بقي قائمًا في ساحة البرج او ساحة الدستور الى عهد غير بعيد ولم يهدم الاّ بمشقة كبيرة فقد جاء في تاريخ الامير حيدر في حوادث سنة ١٦٣٠ ان فخر الدين بنى في بيروت برج الكشاف والحموش ثم سار الى حوران وبنى قصر سلمد وعليه فقصر فخر الدين كان قريبًا من برج الكشاف والله كان في ساحة البرج نفسها في الحديقة والسراي

ولم يزل سور المدينة قائماً الى الجنوب منها وهو مبني من انقاض مبانيها القديمة . فترى فيه قطعاً من اعمدتها الرخامية ورأيت خارج السور كثيراً من الاعمدة الغرانيت والارض المرصوفة بالفسيفساء وقطعاً من الرخام الصقيل والتماثيل القديمة وغير ذلك من الآثار التي تدل على ما كان لهذه المدينة من العظمة . وعلى شاطىء البحر قلعة قديمة مخربة وآثار مرفإ قديم

وخرجنا من بيروت في التاسع عشر من شهر مارس ودخلنا سهلاً فسيحاً يمتد من البحر الى الجبل في اوله غابة الصنوبر التي زرعها الامير فخر الدين[1]

ووصلنا نهر الدامور وكان جسره مهدوماً وجاء بعض السكان ليساعدوهم على عبوره واخذوهم الى اعمق مكان فيه فادركوا عابتهم وتركوهم وصعدوا الى مخافته وعبروا منها . ووصلوا بعد ساعتين الى نهر الاولي وعليه قنطرة كبيرة من الحجر قال الكاتب ولم ار احداً من الجغرافيين ذكر هذا النهر وبعد رجوعي ذكرته للسيد اسطفان بطريرك الموارنة في قنوبين فقال لي ان اسمه الاولي وان منبعه قرب البارووك وهي قرية في لبنان . وقابلنا عند هذا النهر كثيرون من التجار الفرنسويين في صيداء فذهبوا بنا الى الخان الذي يقيمون فيه في المدينة هم وقنصلهم . وامام الخان مرفأ صغير لكنه مردوم ردمه الامير فخر الدين ليمنع السفن التركية من الوصول الى المدينة ولذلك تضطر السفينة الآتية الى صيداء ان ترسو الى جانب جزيرة صخرية على نحو ميل من البر وقاية لها . وصيداء مزدحمة بالسكان الآن ولكنها صارت اصغر كثيراً مما كانت قبلاً ولم يبق لها شيء من عظمتها السالفة التي تدل عليها العمد الكثيرة المبعثرة في بساتينها . وعلى اكمة جنوبي المدينة قلعة قديمة يقال انها من عمل لويس التاسع ملك فرنسا وعلى مقربة من هذه القلعة قصر كان لفخر الدين وقد تركه قبل ان يتمه وهو الآن سراي الباشا

وتنصل فرنسا في صيداء هو قنصلها ايضاً في القدس وعليه ان يزور القدس في كل فصح لحماية الزهبان . وكنا نود ان نرافقه في هذه الزيارة وقد كتبنا اليه في ذلك من حلب لكي

---

(١) ان ذكر هذا السائح لتشجير بيروت ونسبته اياه الى الامير فخر الدين وذلك سنة ١٦١٦ بعد قتل الامير فخر الدين بخمس سنين فقط دليل قاطع على ان الامير فخر الدين هو الذي زرعه ولكن ذلك لا ينفي ان يكون قد زرعه في مكان غابة اخرى كانت هناك كما فعل ابرهيم باشا المصري حينما فتح سورية . والاشجار الكبيرة التي كنا نراها في هذه الحرجة سنة ١٨٦ وما بعدها عمرها نحو مئتي سنة . وقلعت اربعة صنوبرية كبيرة في المصيطبة قرب المحرش سنة ١٨٦ فظهر جذعها نحو ثمانين سنتيمتراً وقد صرت الآن كم كان عدد طبقاتها ولكن سمك الطبقة عادة ملليمتران فيكون عمره نحو مئتي سنة

عظمي به فاجابنا انهُ ينتظرنا الى ان نحضر ولكن الامطار عاقتنا وخاف ان نتأخر كثيراً فخرج من صيداء قبل وصولنا اليها بيوم واحد ووعد ان ينتظرنا قليلاً في عكاء . فنهضنا في الصباح وواصلنا السير . ثم وصف ما رأوهُ في الطريق الى ان وصلوا القدس ودخلوا من باب الخليل ولم يترجلوا ولا سلموا اسلحتهم كما يفعل كل الافرنج الذين يدخلون اورشليم لانهم دخلوا مع قنصل فرنسا ونزلوا في بيت القنصل وكانوا يبيتون هناك ويأكلون ويشربون في دير اللاتين كل مدة اقامتهم في القدس . وسنلخص بقية الرحلة في جزء تالٍ

ولم يذكر الكاتب من اين كان فخر الدين يأتي بالمال لبناء القصور والقلاع لكن المطّلع على تواريخ سورية في ذلك العصر يعلم انهُ كان يعتمد على املاكهِ وعلى ما يبتزهُ من السكان ورؤساء العشائر فقد جاء في تاريخ الامير حيدر ان مركباً فرنسوياً جاء عكاء سنة ١٠٣٢ هجرية ليوسق قطناً وكان فيهِ اربعون الف ريال ثمن القطن . وجاء فيهِ ايضاً ان الامير فخر الدين اوفى ولدهُ علياً السنة عشر الف الغرش من غلة حريرهِ واملاكهِ ليوفي الافرنج ما استدانهُ منهم وقصدها بذلك استجلاب التجار وعمار البلاد ولم يفعلا كما فعل يوسف باشا صيدا والي طرابلس قبيل ذلك فانهُ جاء صيدا طرابلس مركبان فرنسويان فيهما ثمانون الف غرش لاجل مشترى البضائع فادعى انهما مركبا قرصان وضبط ما فيهما من البضائع والاموال واسك جميع من فيهما من التجار والنوتية وقتلهم جميعاً وباع المركبين بثلاثة آلاف غرش ومن حين حدوث هذه الفعلة لم يدخل صيدا طرابلس من تجار الافرنج احد . وذكر المسيو ده لاروك في رحلتهِ سنة ١٦٨٨ ان الشيخ يونس الظازن كان ريع املاكهِ في السنة نحو مئة الف فرنك

وغرش تلك الايام بمثابة نصف ريال مصري او عشر الليرة الانكليزية فالثمانون الف غرش تساوي ثمانية آلاف جنيه . والسنة عشر الف الغرش التي باع الامير فخر الدين حريرهُ بها تعادل الفاً وستمائة ليرة انكليزية . فالبلاد كانت كثيرة الخيرات والاهالي كانوا يدأبون على الزراعة ولكن الظلم والجور كانا بالغين حداً يفوق التصور ولم تستريح البلاد قليلاً الاَّ في زمن فخر الدين